هنري ميللر

زمن ليس للشعر*

دراسة عن رامبو — **ترجمة سعدي يوسف**

يشكل هذا النص ، نصف القسم الاول من دراسة هنري ميلر عن رامبو التي كتبها سنة ١٩٥٥ . ان هذه الدراسة التي يمتزج فيها الشخصي والعام، وعنصرا النقد والتذوق ، اضافة الى المعلومات ، نعتبر انموذجا فيه من الحداثة قدر ما فيه من الطرافة . انها سيرة مزدوجة ، بل اكثر .

س . ي

***

« ١ »

تمهيد

في تشرين اول الماضي . بالضبط ، كان قد مر على ميلاد رامبو ، مائة عام . في فرنسا كان الاحتفال بالذكرى المئوية مثيرا . اذ دعي كتاب مشهورون ، من مختلف انحاء العالم ، ليحجوا الى « شارلفيل » مسقط رأس رامبو . واتخذت الاحتفالات طابع مناسبة وطنية . اما رامبو ، فربما تقلب في قبره .

منذ وفاة رامبو ، ترجمت اجزاء من آثاره الكثيرة الى لغات عديدة بينها التركية والبنغالية . وحيثما كان ما يزال ثمت احساس بالشعر والمغامرة الكبرى ، فان اسمه على طرف كل لسان .

وفي السنوات الاخيرة انتشرت العبادة الرامبوية انتشارا مدهشا ، وازداد الادب المكرس لحياته وآثاره ، واتسع بصورة قفزات ومسافات . ولا يمكن القول ان شاعرا من العصر الحديث قد لقي نفس هذا الانتباه والاهتمام .

باستثناء « فصل في الجحيم » و « الاشراقات » ، لم تجد سوى قصائد قليلة طريقها الى لغتنا ، وحتى هذه الترجمات القليلة تكشف عن تفسيرات متنوعة ، واسعة، ولا بد منها .

لكن ، مهما كان اسلوب رامبو ، صعبا ، عصيا ، فان هذا لا يعني ان رامبو ممتنع على الترجمة . الا ان انصاف آثاره امر آخر .

وعلينا ، في اللغة الانجليزية ، ان ننتج شاعرا قادرا على ان يقدم لرامبو ، ما قدمه بودلير لـ « پو » ، او نرفال لـ « فاوست » ، او موريل ولاربو لـ « يوليسيس »

واود ان اوضح ان هذه الدراسة الصغيرة ، المكتوبة قبل عشر سنوات ، كانت نتيجة الاخفاق في ترجمة « فصل في الجحيم » بالصورة التي اردت .

وما يزال يراودني الامل في اعطاء هذا النص ، اللغة الاكثر قربا من اللسان « الزنجي » لرامبو .

ان مؤلفي الاغاني الزنجية — بالرغم من انهم لا يعلمون — هم اقرب الى رامبو ، من الشعراء الذين عبدوه وقلدوه .

لقد بدانا ، الآن فقط ، نفهم ما فعله رامبو للغة، وليس للشعر وحده . هذا الفهم يجري بين القراء اكثر من الكتاب ، في بلادنا ، بالاقل ، كما اشعر .

ان كل الشعراء الفرنسيين المحدثين ، تقريبا ، قد تأثروا رامبو . بل يستطيع المرء القول ان الشعر الفرنسي الجديد يدين بكل شيء لرامبو . لكن لم يستطع احد

---

* في « الاشراقات » وردت صيغة (زمن القتلة)

Le Temps des Assassins

في البيت الاخير من قصيدة : Matineé D'ivresse

Nous avons foi Au poison .

Nous avons donné notre vie tout entiére tous les jours . Voici Le temps des assasins .

س . ي

تجاوزه ، في الجراة والابداع . والشاعر الحي الوحيد القادر على منح شيء يقترب من بهجة رامبو واثارته هو : سان جون بيرس .

والنص هذا ، ظهر ، في الاصل ، في قسمين من اصدارات « نيو دايركشنز » السنوية ، تحت رقمي ٩ و ١١ . ومنذ ذلك الحين ظهر بالفرنسية والالمانية ، وكانت هاتان الطبعتان في سويسرا ، البلد الذي لا يستطيع المرء ربطه بعبقرية رامبو .

وفي هذه الطبعة ، جرى تغيير في ترتيب القسمين . ويمكنني ان اضيف انني اعتزمت ، اصلا ، كتابة قسمين آخرين ، لكني تخليت عن تلك الفكرة .

وانا اعتقد ، مخلصا ، بأن اميركا تحتاج الى التعرف على هذا الكائن الاسطوري ، الآن ، اكثر من اي وقت مضى . (والمسألة هي نفسها بالنسبة لشاعر فرنسي خارق آخر ، انتحر قبل مائة عام في كانون الثاني الماضي . هو جيرار دي نرفال) .

ولم يمرّ على اميركا حين من الدهر كان وجود الساعر فيه مهددا ، كما هو الامر الآن . ان الانواع الاميركية ، مهددة حقا بالزوال ، سويا ، وفي آن واحد .

عندما سمع كنيث ريكسروث بالموت المبكر لـ « دايلان توماس » اطلق « تذكارية » عنوانها « انت لن تقتل » كتبها في بحران وهج ابيض ، ولم يكن يقصد نشرها ، لكنها وزعت فورا ، وترجمت الى عدد من اللغات .

ان كان لدى اي امريء ، اية شكوك ، حول المصير الذي يخبئه مجتمعنا للشاعر ، فليقرا هذه «التذكارية» عن الشاعر الويلزي الذي كتب « صورة الفنان جروا » .

ان منزلة الشاعر وحالته ـ وانا استخدم الكلمة بمعناها الواسع ، والدقيق كذلك ـ تبين ، بدون شك ، الوضع الحقيقي لفاعلية شعب ما .

في الصين واليابان والهند وافريقيا ، افريقيا « البدائية » ، نرى الشعر ما يزال غير قابل لان يمحى ومن يعوزنا ، بصورة واضحة ، في هذه البلاد ، بل من لا نحس حتى بانه يعوزنا ، هو : الحالم ، المجنون الملهم .

أية اغنية للغول ، سنسمع ، حين يأتي زمن ، نهيل فيه التراب ، على هذا ؟.. هل سنركز انتباهنا على « عدم تكيف » الفرد المتوحد ، وهو المتمرد الحقيقي في مجتمع عفن !

بينما هؤلاء الاشخاص انفسهم ، هم الذين يمنحون مغزى لمصطلح « عدم التكيف » الذي يساء استعماله .

في مقالة عن « سياسة بودلير » نشرتها مجلة « بوزار » في ٢٥ كانون الثاني ، ١٩٥٥ ، كُتب موريس نادو ما يأتي « في قلبي العاري احساس دائم بالغربة عن العالم وطقوسه . انه عالم البورجوازية حيث اخلاقية الصرّاف ، المرعبة . عالم الغيلان الجائع الى الماديات ، المفتون بنفسه ، غير المدرك انه داخل الانهيار ، العالم الذي نعرف بنبوءة منفردة انه سائر نحو التأمرك ، منذور للحيوانية » .

الامر المؤثر لدى شعراء القرن التاسع عشر البارزين ، وكذلك لدى شعراء القرن العشرين البارزين ، هو نغمتهم النبوية . لكن شعراءنا المتأخرين ـ خلافا لـ « بليك » و« ويتمان » ذوي النظرة الكونية ـ يسكنون اعماق الغابة السوداء . ان سحر العهد الالفي السعيد الذي سيطر على ذوي الرؤى امثال جواكيم دي فلوريس ، وهيرونيموس بوش ، وبيكوديلا ميراندولا ، والذي ما يزال اغراؤه ماثلا اكثر من السابق ، هذا السحر استبدلت به عبودية الخراب التام . وفي دوامة العتمة والفوضى القادمتين ، ينسحب شعراء اليوم ، واشمين انفسهم بلغة خفية ، تغدو اكثر فاكثر ، غير ممكنة الفهم .

وبينما ينطفئون ، الواحد تلو الآخر ، تنحدر البلدان التي انجبتهم ، نحو قدرهم ومصيرهم . ان فعل القتل ، سيبلغ غايته سريعا ، وعندما يختنق صوت الشاعر ، يفقد التاريخ معناه ، وينفجر وعد الدينونة ، مثل فجر جديد مخيف ، على وعي الانسان .

الآن فقط ، وعلى حافة الصراط ، يمكن ان ندرك ان « كل ما علمناه زائف » ، ان برهان هذه القولة المدمرة بارز ، كل يوم ، وفي كل مكان : في ساحة القتال ، والمختبر ، والمصنع ، في الصحافة ، والمدرسة ، والكنيسة .

اننا نحيا ، اطلاقا ، في الماضي ، نتغذى بافكار ميتة ، ومعتقدات ميتة ، وعلوم ميتة . الماضي هو الذي يستحوذ علينا ، لا المستقبل . فالمستقبل كان دائما يعود ، وسيعود دائما الى ـ الشاعر .

حين افلت رامبو من العالم ، فلربما انقذ روحه من مصير اسوأ مما كان مقدرا له في الحبشة . ولربما قدمت لنا قصيدة « الصيد الروحي » ـ لو قدر لها ان تستنقذ من التراب ـ مفتاحا مفقودا . ومن يدري ؟ فلربما اعطتنا حلقة الوصل بين « فصل في الجحيم » و« عيد ميلاد على الارض » ، هذا العيد الذي كان يوما ، واقعا ، لدى الحالم المراهق .

في اللغة الرمزية للروح ، وصف رامبو كل ما يحدث الآن . وفي رأيي ان ليس ثمّت تنافر بين رؤياه للعالم وللحياة الابدية ، وبين رؤى مجددي الدين العظام .

اننا مدفوعون ، المرة تلو المرة ، الى ان نخلق رؤيا جديدة للسماء والارض ، ان ندع الموتى يدفنون الموتى ،

ان نحيا اشقاء في الجسد ، ان نجعل عيد ميلاد الارض واقعا . واننا لمحذرون ، المرة تلو المرة ، ان لم تصبح شهوة الحياة الجديدة قناعة حية لكل واحد منا ، واي واحد منا ، فان الوجود الارضي لن يكون اكثر من **مطهر** أو **جحيم** .

ان السؤال الواحد الاحد الذي يواجهنا هو : الى اي مدى نستطيع تأجيل الحتمي ؟

ترى ماذا علينا ان نقول ، حين نفكر بان ولدا غرّا هز العالم من اذنيه ؟

أليس ثمت امر **معجز** في ظهور رامبو على هذه الارض ؟ شأنه شأن يقظة غوتاما ، وتقبل المسيح الصليب ، ورسالة خلاص جان دارك المذهلة ؟

فسّر عمله كما شئت ، اشرح حياته كما اردت ... وسيظل نورا لا يشجب . فالمستقبل كله له ، حتى لو لم يكن امامنا مستقبل .

« ٢ »

تناظرات ، قرابات ، مراسلات ، ارجاع

كان ذلك عام ١٩٢٧ ، في القبو الغائر ، بمنزل قذر ، في بروكلين ، حين سمعت للمرة الاولى اسم رامبو . كان عمري ستة وثلاثين عاما ، وكنت في اعماق « فصل الجحيم » المديد ، الخاص بي . وثمت كتاب عن رامبو في المنزل ، لكني لم انظر اليه مرة . وكان السبب اني اكره المرأة صاحبة الكتاب ، والتي كانت تسكن معنا .

كانت في الملامح ، والمزاج ، والسلوك ـ مثلما اكتشفت مؤخرا ـ تشبه رامبو ، كما يمكن ان يتخيل المرء .

وكما قلت ، بالرغم من كون رامبو مادة الحديث الدائمة بين ثلما وزوجتي ، فاني لم ابذل جهدا لمعرفته. والحق انني ناضلت كالشيطان نفسه حتى ابعده عن خاطري ، وبدا لي ، آنذاك ، انه العبقري الشرير ، المسبب لكل ضيقي وبؤسي .

ولاحظت ان ثلما ، التي ابغضها ، كانت تكتسب هويتها منه ، مقلدة اياه ، قدر استطاعتها ، لا في السلوك ، حسب ، بل في نوع الشعر الذي تنظمه . لقد تآمر كل شيء ، كي ارفض اسمه ، وتأثيره ، وحق وجوده. كنت آنذاك في اسفل السافلين ، وكانت معنوياتي محطمة تماما .

واتذكرني جالسا في القبو البارد الرطب ، محاولا الكتابة في ضوء شمعة خافقة ، وبقلم رصاص . كنت احاول كتابة مسرحية تتناول مأساتي انا ، فلم افلح في تجاوز الفصل الاول ابدا .

في حالة اليأس والعقم هذه ، كنت بصورة طبيعية ، شديد الارتياب ، بعبقرية شاعر في السابعة عشرة .

وبدا كل ما سمعته عنه ، من اختراع ثما المخبولة.

وكنت قادرا على الاعتقاد بانها تستطيع استنباط وسائل ماكرة لتعذيبي ، ما دامت تكرهني ، مثلما اكرهها .

كانت الحياة التي عشناها ، نحن الثلاثة ، والتي تحدثت عنها طويلا في « الصلب الوردي » مثل حادثة في احدى قصص دوستويفسكي ، غير واقعية ، غير قابلة لان اصدقها ، الآن .

لكن المسألة ، هي ان اسم رامبو ، قد التصق .

وبالرغم من انني لم اقم حتى بالقاء نظرة على عمله ، الا بعد ست سنوات او سبع ، في منزل « انيس نين » بـ « لوفيسين » ، غير ان حضوره ، كان معي دائما . كما ان تعارفنا كان مقلقا :

« سوف تشتبك معي يوما » . هذا ما ظل صوته يردده في اذني .

ويرم قرأت اول بيت لرامبو ، تذكرت فجأة ، انه من « المركب السكران » القصيدة التي طالما هذت بها ثلما .

المركب السكران !

كم يبدو هذا العنوان معبرا في ضوء كل ما عانيته لاحقا !

في هذا الوقت ، ماتت ثلما في مستشفى مجانين. ولو لم اذهب انا الى باريس ، وابدأ العمل الجاد هناك، للقيت المصير نفسه . لقد غرقت سفينتي في ذلك القبو بأعالي بروكلين . وعندما تهشمت عارضتها الرئيسة، واندفعت نحو البحر المفتوح ، ادركت انني كنت حرا ، وان الموت الذي مررت خلاله .. قد حررني .

ان كانت تلك الفترة في بروكلين تمثل « فصل ـ ي ـ في الجحيم » ، فان الفترة الباريسية ، وبخاصة من ١٩٣٢ الى ١٩٣٤ ، كانت فترة « اشراقات » ي .

عندما وقعت على عمل رامبو ، في ذلك الحين ، كنت اكتب بغزارة ، واندفاع ، وهياج ، لذا ابعدته جانبا .

كانت ابداعاتي اكثر اهمية لديّ .

فبمجرد القائي نظرة على كتاباته ، عرفت ما ينتظرني .

لقد كان الديناميت الصرف .

لكن عليّ اولا ، ان اقذف باصبع ديناميتي الخاص.

لآنذاك ، لم اكن اعرف شيئا عن حياته ، سوى النتف التي التقطتها من ثلما قبل سنين .

لذا ، كان لزاما عليّ ان اقرأ سيرته .

وحدث هذا سنة ١٩٤٣ ، اثناء سكناي في بفرلي جلن ، مع جون دولي ، الرسام ..

اذ قرأت للمرة الاولى عن رامبو .

قرأت « فصل في الجحيم » لجان ماري كاريه ، ثم كتاب انيدستاركي .

لقد استحوذ عليّ ، وعقد لساني . وبدا لي انني لم اقرأ ابدا عن حياة ملعونة كحياة رامبو ، نسيت عذاباتي ، التي تفوق عذاباته كثيرا . نسيت الاحباطات والمهانات التي عانيتها ، واعماق اليأس والعجز التي غرقت فيها ، مرة بعد اخرى . وغدوت مثل ثلما ، في تلك الايام .. لا استطيع التحدث الا عن رامبو . وكان على كل من يزورني ان يصغي الى اغنية رامبو .

الآن فقط ، بعد ثماني عشرة سنة من سماعي اسمه للمرة الاولى ، استطيع ان اراه بوضوح، وان اقراه قراءة المتبصر . الآن اعلم كم عظيمة كانت مأثرته ، وكم رهيبة كانت محنه . الآن افهم مغزى حياته وعمله ــ بقدر ما يستطيع احد القول انه يفهم حياة وعمل الآخر . لكن ما اراه بوضوح اشد ، هو كيف نجوت ، بمعجزة ، من معاناة المصير الرديء نفسه .

عانى رامبو ازمته العظمى عندما كان في الثامنة عشرة ، حينها بلغ حد الجنون ومنذ ذلك الحين غدت حياته صحراء لا تنتهي . اما انا فبلغت الحد بين السادسة والثلاثين او السابعة والثلاثين .. العمر الذي مات فيه رامبو . ومنذ ذلك الحين بدات حياتي تزدهر. رامبو تحول من الادب الى الحياة ، انا فعلت العكس رامبو هرب من السعالي التي خلقها ، اما انا فقد عانقتها . لقد صحوت من حماقة وضياع الممارسة المجردة للحياة . هكذا توقفت ، ووجهت طاقاتي وجهة الابداع . واندفعت في الكتابة ، بنفس اللهفة والحرارة اللتين وسمتا اندفاعي في الحياة . وربحت الحياة بدل ان اضيعها ، وحدثت المعجزات ، واحدة اثر الاخرى ، وبدل كل حظ عاثر خيرا . اما رامبو ، فبالرغم من اندفاعه في ارض مناخات ومشاهد لا تصدق .. في عالم فانتازيا غريب وبهيّ كقصائده ، الا انه غدا اكثر مرارة وانغلاقا وفراغا واسى .

رامبو أعاد الادب الى الحياة . انا اردت ان اعيد الحياة الى الادب . ولدينا نحن الاثنين تقوى الخاصية الاعترافية ، والانشغالات الاخلاقية والروحية كما ان التلذذ باللغة والموسيقى اكثر من الادب ، صفة مشتركة بيننا . مع رامبو احسست بطبيعة بدائية تعبر عن نفسها بطرق غريبة . وصف كلوديل رامبو بانه « صوفي في حالة متوحشة » ، وهو وصف ليس له مثيل . ان رامبو لا « يقود » الى اي مكان . وكان لديّ هذا الاحساس ذاته ازاء نفسي .

التناظرات لا تنتهي ، وسوف اتناولها ببعض التفصيل ، ذلك لانني في قراءة السير والرسائل رايت وجوه الشبه واضحة الى حد جعلني لا اقاوم تدوين ملحوظات عنها . ولا اظنني فريدا .. في هذا ، بل اعتقد ان في العالم ، الكثير من رامبو وان عددهم يزداد مع الزمن . وارى ان النمط الرامبوي سيحل في المستقبل محل النمط الهاملتي او الفاوستي .

ان الاتجاه سائر نحو انشطار اعمق . والى ان يموت العالم القديم نهائيا ، فان الفرد « الشاذ »سيكون، اكثر فاكثر ، هو النموذج . ولن يجد الانسان الجديد نفسه الا حين تنتهي الحرب بين الجماعية والفرد . آنذاك سوف نرى النمط **الانساني** بكل امتلائه وبهائه .

***

من اجل ان نعرف «فصل في الجحيم» معرفة كاملة، هذا الفصل الذي امتد ، لدى رامبو ، ثماني عشرة سنة، علينا ان نقرأ رسائله . لقد امضى معظم هذا الوقتعلى الشاطىء الصومالي ، وفي عدن عدة سنوات . وفيما يأتي وصف للجحيم على الارض ، من رسالة الى امه :

« لا تستطيعين ان تتخيلي المكان : فلا شجرة ، حتى لو كانت ذاوية . ولا تربة . ان عدن فوهة بركان خامد مليئة برمل البحر . انك لا ترين الا الحمم والرمل في كل مكان ، هذه التي لا تنبت اضأل نبت . وهي محاطة برمال الصحراء ، وهنا تصد جوانب فوهة بركاننا الخامد ، الهواء . واننا لنشوى كما لو كنا في فرن جيريّ » .

كيف رضي انسان عبقري، مفعم بالطاقات العظيمة، ان يسنجن نفسه ، مشنويا ، متلويا ، في غار تعس كهذا ؟

امامنا ، هنا ، رجل لم تكن تكفي لديه الفحياة لاكتشاف عجائب الارض ..

لكننا نراه ، عاما بعد آخر ، مقطوعا في هذا الغار الجهنمي . كيف تفسر الامر ؟ نحن نعلم، بالطبع ، انه كان يصارع الاغلال ، ويدبر تدابير لا تحصى ، ومشاريع من اجل ان يعتق نفسه ، ليس فقط من عدن ، ولكن من كل عالم الكدح والعرق . ان رامبو ، وهو المغامر ، كان مسكونا بفكرة الانعتاق التي ترجمها بصيغ الامان المالي . في الثامنة والعشرين يكتب الى اهله ان الامر الاكثر اهمية والحاحا لديه ، هو ان يغدو مستقلا ، في اي مكان كان. لكنه حذف ما ينبغي ان يضيفه وهو : وبأي طريقة كانت. كان مزيجا غريبا من الوقاحة والحياء . كانت لديه الجراة على المغامرة في اراض لم تطأها قدما رجل ابيض ، لكن لم تكن لديه شجاعة مواجهة الحياة بدون دخل ثابت . كان لا يخاف اكلة لحوم البشر ، لكنه يخاف اشقاءه البيض .

مع انه كان يحاول جمع ثروة مريحة ، يستطيع ان يسافر بسببها ، ويطوف العالم ، متمتعا ، مرتاحا ، او ان يستقر في مكان ما حين يجد البقعة المناسبة ، الا انه ظل الشاعر والحالم ، والانسان غير المتكيف مع

الحياة ، الانسان المؤمن بالمعجزات ، الباحث عن الفردوس بشكل او بآخر .

كان يعتقد اولا ان خمسين الف فرنك ستكون كافية لتأمين نفسه طيلة حياته . لكنه ، ما ان كاد يجمع هذا المبلغ حتى قرر بان مائة الف هي التي تجعله اكثر امانا .

هذه الفرنكات الاربعون الفا ! اي زمن بانس مفزع قضاه ، وهو يحمل خميرته معه ! لقد كانت هذه الفرنكات دماره عمليا . عندما حملوه من « هرر » الى الساحل على محفة ـ وهي رحلة تمكن مقارنتها برحلة كالفاري ـ كانت افكاره تدور غالبا حول الذهب في همیانه . وحتى في مستشفى مرسيليا ، حيث بترت ساقه . كان مصابا بخميرته. وان لم يكن الالم هو الذي يبقيه مستيقظا ليالي عديدة ، فانه التفكير بماله الذي يرتديه ، والذي عليه ان يخفيه حتى لا يسرقه احد . كان يريد ايداعه في مصرف ، لكن كيف يستطيع الذهاب الى المصرف ، وهو لا يستطيع المشي ؟ انه يكتب الى بيته حتى يأتي احدهم ويعتني بالكنز الثمين .

ثمة شيء فاجع ومضحك في هذا الامر ، بحيث لا يعرف المرء ماذا يقول او يرى .. اكثر .

لكن ماذا كان اصل جنون الامان هذا ؟

انه الخوف الذي يعرفه كل فنان مبدع : انه غير مرغوب فيه ، ولا يفيد العالم بشيء . كم تحدث رامبو في رسائله عن كونه غير صالح للعودة الى فرنسا واستئناف حياة المواطن العادي . لا تجارة لدي ، لا حرفة .. ولا اصدقاء هناك . هكذا كان يقول . ومثلما يفعل كل الشعراء كان يرى العالم المتمدن غابة، لا يدري كيف يحمي نفسه فيها . ويضيف احيانا انه من المتأخر الآن التفكير بالعودة ـ انه يتكلم دائما كما لو كان شيخا ! ـ لقد اعتاد ، تماما ، الحياة الحرة المتوحشة المغامرة ، بحيث لم يعد يستطيع العودة الى ان يسرج. كان اكثر ما يكرهه : الكدح الحلال ، لكنه ، في افريقيا، وقبرص ، والجزيرة العربية ، كان يكدح مثل زنجي، مقترا على نفسه في كل شيء ، حارما اياها حتى من القهوة والتبغ ، مرتديا « الدشداشة » القطنية ذاتها، موفرا كل قرش يربحه ، فلن يشعر بالحرية ، لن يكون سعيدا ، لن ينفض عنه نير الضجر . لقد تحول من اندفاع الشاب الى حذر الشيخ . كان تماما ، الطريد ، والمتمرد، والملعون ، الذي لا يمكن ان ينقذه شيء .

انني اشدد على هذه الناحية في طبعه ، لانها تفسر العديد من التصرفات السيئة المنسوبة اليه . لم يكن شحيحا ، ولا فلاحا في قلبه ، كما يقول بعض كتاب سيرته . لم يكن قاسيا على الآخرين ، كان قاسيا على نفسه . كان ، فعلا ، كريم الطبع . يقول باردي احد مستخدميه القدماء « كان احسانه بذلا طبيعيا غير مدع . وربما كان هذا الاحسان من الامور القليلة التي يفعلها دون ازدراء او استخفاف ».

وثمة فزاعة اخرى . كانت تؤرق ايامه ولياليه : الخدمة العسكرية . فمنذ ان بدا تطوافه . حتى يوم وفاته كان يعذبه الخوف من السلطات العسكرية . ولقد كان ، حتى قبل اشهر من موته ، في مستشفى مارسيليا وهو مبتور الساق ، متضاعف الآلام .. خائفا من ان تكتشف السلطات العسكرية مكانه ، وترسله الى السجن. كان هذا الخوف يرهقه كالجثام . « أيكون السجن ما سأعانيه ؟ ان الموت افضل ! » كان يرجو اخته الا تكتب اليه الا في الضرورة الماسة . وان تكتب عنوانه باسم « رامبو » فقط ، لا آرثر رامبو ، وان تبعث برسائلها من مدينة مجاورة لمدينتها . ان نسيج شخصيته ليبدو امامنا عاريا في هذه الرسائل الخالية تماما من اي قيمة ادبية او فتنة . اننا لنرى فيها جوعه العارم الى التجربة ، وحب استطلاعه الدائم ، ورغباته التي لا تحد ، وايذاءه النفس ، وزهده ، وقناعته ، مخاوفه ، وكوابيسه ، وضيقه ، وتوحده ، واحساسه بالنبذ. ونرى فوق هذا كله انه كان ، مثل كل الافراد المبدعين ، غير قادر على ان يتعلم من التجارب : ليس ثمة الا دورة متكررة من التجارب المتشابهة والعذابات . اننا نراه ضحية توهم ان الحرية يمكن نيلها بوسائل خارجية. نراه يظل المراهق طيلة حياته ، رافضا قبول المعاناة او اعطاءها القيمة ولكي نقدر فداحة اخفاقه في نصف حياته الاخير ، علينا ، فقط ، ان نقارن تطوافه بتطواف كابيزا دي فاكا .

لكن ، دعونا نتركه وسط الصحراء التي خلقها لنفسه . وقصدي ، الاشارة الى تناظرات وقرابات ومراسلات وارجاع معينة . لنبدأ بوالديه : مثل السيدة رامبو ، كانت امي ، امراة شمالية ، باردة ، نقادة ، متكبرة ، غير متسامحة ، وطهرية . اما ابي فكان جنوبيا، من والدين بافاريين ، بينما كان والد رامبو بورجنديا. وكان هناك صراع وخلاف مستمران بين الام والاب ، مع الارجاع المعتادة على الابن . ان الطبع المتمرد ، ذا المراس الصعب الذي لا يمكن ترويضه ، يجد هنا رحمه. ومثل رامبو ، بدأت في وقت مبكر اصرخ : « ليمت الله ! » كان هذا،موت كل شيء يرضاه الوالدان ويقبلانه. ولقد امتد هذا حتى الى اصدقائهما الذين كنت اهينهم امامهما ، حتى حين كنت ولدا . ولم يتوقف العداء حتى وابي على فراش الموت فعلا .. عندما بدأت اعرف كم اشبهه . مثل رامبو ، كرهت مسقط راسي ، وسأظل اكرهه الى مماتي . كان هاجسي المبكر ان افلت من بيتي، والمدينة التي امقت ، والوطن ومواطنيه الذين لا يجمعني بهم جامع . مثله ، ايضا، كنت مبكر النضج، اردد القصائد بلغة اجنبية صغيرا . لقد تعلمت المشي

والكلام قبل الاوان، وقراءة الصحيفة حتى قبل ان اذهب الى روضة الاطفال . كنت دائما اصغر تلميذ في الصف.. وافضل تلميذ ، بل المفضل لدى معلمي ورفاقي . لكن، كنت مثله ايضا ، احتقر الجوائز والهدايا التي تقدم لي ، ولقد طردت من المدرسة ، مرارا ، بسبب سلوك منحرف . وبدا ان رسالتي في المدرسة هي السخرية من المعلمين والمنهج . كانت المدرسة ، بكل ما فيها ، سهلة جدا ، وغبية جدا ، بالنسبة لي . واحسست انني مثل قرد مدرب .

منذ طفولتي المبكرة كنت قارئا نهما . وفي عيد الميلاد كنت اطلب الكتب فقط .. عشرين او ثلاثين كل مرة . والى ان بلغت الخامسة والعشرين ، او ما يقارب ذلك، لم اغادر البيت ابدا بدون ان اتأبط كتابا . كنت اقرأ وانا واقف ، وانا في طريقي الى العمل ، واحفظ مقاطع شعر طويلة من شعرائي المفضلين . واتذكر ان «فاوست» غوته كان من بين هذه الكتب . اما النتيجة النهائية لامتصاص الكتب المستمر هذا ، فكانت الهابي لثورةابعد، وحث رغبتي الراقدة في السفر والمغامرة ، وجعلي ضد اهل الادب . صرت احتقر كل ما يحيط بي ، مبتعدا، بالتدريج ، عن اصدقائي ، وفارضا على نفسي ذلك الطبع المتوحد المرير الذي لا يمكن ان يدعى صاحبه الا فردا « غريبا » . ومن سن الثامنة عشرة (سنة ازمة رامبو) غدوت ، بالتحديد ،شقيا ، محطما ، بائسا ، يائسا . ولم يكن بالامكان الخلاص من هذه الحال الا بتغيير ظروفي تغييرا كاملا . في الحادية والعشرين أفلت .. لكن الوقت قصير . ومرة اخرى ، مثل رامبو، كانت الهروبات المفتوحة امامي ، ذات نتائج خائبة تماما. وكنت ، دائما ، اعود الى بيتي ، بارادتي ، او بغير ارادتي .. وفي وضع يائس دائما .

كان يبدو ان ليس ثمة مخرج . اشتغلت بمعظم الاعمال الغريبة . وباختصار ، اشتغلت في كل شيء لا يناسبني . ومثل رامبو في مقالع الحجر بقبرص ، عملت بالرفش والمعول ، عامل مياومة ، متنقلا ، أفاقا . بل اشبهت رامبو حتى في هروبي من منزلي . . اذ كنت اقصد ــ مثله ــ ان احيا حياة طليقة ، لا اقرأ فيها كتابا مرة اخرى، معتمدا في معيشتي على يدي ،ان اكون رجل الاجواء المفتوحة ، لا مواطن حاضرة او مدينة . لكن لغتي وافكاري كانت تخونني دائما . كنت تماما ، الاديب، سواء اردت هذا ام لم ارده . ومع انني كنت استطيع تدبير امري مع اي فرد ، كائنا من كان ، وبخاصة الفرد العادي ، غير اني اغدو ، في آخر الامر ، الشخص المشكوك فيه ، وهكذا كانت زياراتي الى المكتبة : اطلب دائما الكتاب المفلوط . ومهما كانت المكتبة كبيرة . فان الكتاب الذي اريده ، لن يكون فيها .. او ان هذا الكتاب يمنع عني .

وبدا لي ، تلك الايام ، ان كل ما اريده في الحياة، او من الحياة . محرّم عليّ . طبيعي انني كنت مذنبا في اكثر التجريمات عنفا . ان لغتي التي كانت نابية ، حتى وانا طفل ــ اتذكر انني جررت الى مركز الشرطة ،في السادسة من عمري ، لاستعمالي لغة سليطة ــ لغتي هذه ، غدت ، اكثر نبوا وسلاطة .

اي رجة احسست بها ، حين قرات ان رامبو ،وهو شاب ، كان يوقع رسائله ب « ذلك التعس عديم القلب ». كانت « عديم القلب » صفة اغرمت بسماعها ملصقة بي. ليست لدي مباديء ، ولا ولاءات ، ولا قواعد سلوك .. مهما كانت ، واستطيع حين يخلو لي الامر ان اكون شديد القسوة مع الصديق والعدو على حد سواء. وعادة ، اجزي الحسنة بالاهانة والتجريح . كنت سافلا ، متغطرسا ، غير متسامح ، شديد التحامل ، عنيدا ، بلا هوادة . وباختصار ، كانت لي شخصية متميزة بانها غير مقبولة ، وصعبة المراس ، عصية على التعامل معها .

وبالرغم من هذا ، كنت محبوبا . وكان يبدو ان الناس شديدو التوق لان يغفروا صفاتي السيئة مقابل البهجة والحماسة اللتين اوفرهما . لكن هذا الامر لم يزدني الا جراة على حريات اخرى . واتعجب ،احيانا، كيف استطيع المضي في هذا الوضع . الناس الذين احب ، ان اهينهم واجرحهم اكثر ، هم الذين يرون انفسهم خيرا مني ، على هذا النحو ، او ذاك . انني اشن على هؤلاء حربا لا ترحم . تحت هذا كله ، كنت مثلما تستطيع القول ، ولدا طيبا .

كان مزاجي الطبيعي انني فرد ، عطوف ، فرح ، مفتوح القلب . وفي فتوتي ، كثيرا ما كنت اوصف ب « ملاك » ، لكن شيطان التمرد استحوذ عليّ في سن مبكرة جدا . وكانت امي هي التي زرعت هذا التمرد فيّ. لقد وجهت ضدها ، وضد كل ما تمثله ، طاقتي المتفجرة . ولم اشعر ازاءها بالحنان ابدا ، الى ان بلغت الخمسين من عمري .

ومع انها لم تكن تقف بوجهي عادة (لان ارادتي كانت الاقوى ، حسب) ، الا انني كنت اشعر دائما بظلها يقطع الطريق عليّ . كان ظلا من عدم الرضا ، صامتا ، منسربا ، مثل سم يزرق ببطء في العروق .

ولقد دهشت حين قرات ان رامبو سمح لامهبقراءة « فصلٌ في الجحيم » . فانا لم احلم ، البتة ، بان أري والديّ ما كتبته ، او حتى ان اناقش موضوع كتابتي معهما . وقد اعتراهما الرعب حين اخبرتهما ، اولَ مرة، بانني اخترت ان اكون كاتبا .. كما لو اخبرتهما باعتزامي ان اغدو مجرما . لم لا استطيع ان افعل شيئا حصيفا ؟ شيئا يمكنني من تدبير معيشتي ؟ انهما لم يقرآ سطرا مما كتبت . وكانت مزحة دائمة ان يسأل

اصدقاؤهما عني ، ويستفسروا عما اعمل . « ماذا يعمل ؟ آه .. انه يكتب .. » . كما لو انهما يقولان انه مخبول .. يصنع فاصوليـاء من الطين .. طوال النهار .

صوّرت لنفسي ان رامبو كان مدللا في طفولته كفتاة، وفي صباه ك « غندور » . وهكذا كان الامر معي . وباعتبار ان ابي كان خياطا ، فقد كان طبيعيا ان يهتم والداي بقيافتي . وعندما كبرت ورثت خزانة ملابس والدي الانيقة النفيسة . كنا ذوي مقاس واحد. لكني ، مثل رامبو ، ثانية ، خلال الفترة التي بدأت فرديتي تؤكد نفسها بقوة ، اخذت اكبر نفسي ، بصورة مضحكة، مقابلا الاختلافات الداخلية بتلك الخارجية . وكنت، كذلك ، موضع سخرية في الحي الذي اعيش فيه . وآنذاك ، اتذكر ، احساسي بالارتباك ، وعدم الثقة بالنفس ، وبالخجل من التحدث مع الرجال ايا كانوا . « لا اعرف كيف اتحدث ! » هكذا هتف رامبو في باريس عندما كان محاطا بالادباء . لكن من يستطيع التحدث خيرا منه اذا انطلق ؟ حتى في افريقيا ، عرف باي طلاوة كان يتكلم احيانا . كم اعرف هذه المعضلة جيدا ! اي ذكريات مؤلمة لي عن التلعثم والتأتأة بحضرة رجال طالما تقت الى التحدث معهم ! لكني ، من ناحية اخرى ، حين اكون منفردا ، استطيع التحدث بالسنة الملائكة. منذ الطفولة كنت اعشق صوت الكلمات ، بسحرها ، وقدرتها الفتانة . غالبا ما الجأ الى تأثيرات صوتية ، دافعا مستمعي الى حافة الهستريا . هذه الميزة ، هي التي اكتشفتها ، صدفة ، عند رامبو ، لحظة نظري الى صفحة من صفحاته . وثبت اثرها عندي كالطلقة .

في بفرلي جلن، آن كنت منغمسا في حياته ، سطرت بالطباشير اشعاره على الحائط ـ في المطبخ ، في غرفة المعيشة ، في المغاسل ، وحتى خارج البيت . ان تلك الاشعار لن تفقد قوتها لدي ابدا . وكلما مررت بها انتابتني الرعشة نفسها ، والبهجة ذاتها ، وذلك الخوف من فقداني العقل لو توقفت عندها طويلا . كم عدد الكتّاب الذين يفعلون بك هذا ؟ كل كاتب ينتج مقاطع تسكنك ، او اشعارا تتذكرها ، لكنها عند رامبو لا تحصى . انها مبثوثة عبر الصفحات ، مثل جواهر اسّاقطت من صدر منخوب بالرصاص . هذه الهبة تجعل العلاقة مع رامبو ، لا تنفصم . وهي وحدها التي احسد رامبو عليها . واليوم ، بعد كل ما كتبت ، اجد رغبتي الاعمق في التخلص من الكتب التي الفتها ، وفي ان اقف نفسي على خلق الهراء الخالص ، الفانتازيا الخالصة . لن اكون الشاعر الذي هو رامبو ، لكن ثمة ابعادا خيالية شاسعة ، ما يزال بالامكان بلوغها .

والآن ناتي الى « الفتاة البنفسجية العينين » . نحن لا نكاد نعرف عنها شيئا . نعرف فقط انها كانت تجربته الفاجعة الاولى في الحب . ولست ادري ان كان يعنيها، او يعني ابنة صاحب المصنع . حين استخدم كلمات ـ « مقدسة مثل ...و....و٣٦ جرو بودلي حديث الولادة » . لكني اعتقد جيدا ان رد فعله ازاء موضوع عاطفته ، كان هكذا . على اي حال ، اعرف انها فتاتي، وان لها ايضا عينين بنفسجيتين . ومن المحتمل اني سأفكر بها ثانية ، مثل رامبو ، على فراش الموت . كل شيء تلوّن بالتجربة الخائبة الاولى . والاغرب في الامر ، كما يجب ان اضيف ، انها لم تكن التي رفضتني .. كنت اشعر ازاءها بخشية ورهبة جعلتاني اهرب منها. واتخيل ان الامر كان هو نفسه لدى رامبو . لديه ،طبعا، ضغط كل شيء ـ حتى الثامنة عشرة ـ في مدة زمنية بالغة القصر الى حد مذهل . ومثلما مر مسرعا بكل عالم الادب ، في سنوات قلية ، مر بالتجربة الاعتيادية مسرعا وفي زمن قصير . كان يكفيه ان يذوق شيئا، حتى يعرف مؤداه ومحتواه . وهكذا كانت حياتي في الحب . بقدر ما يتعلق الامر بالمراة .. قصيرة جدا . ولن نسمع اي اشارة عن الحب ، ثانية ، الا في الحبشة ، عندما اتخذ امراة حبشية ، عشيقة . ويحس المرء كما لو ان الامر لم يكن حبا . وان حدث شيء من هذا . فان حبه كان موجها الى صبيه « جامي »من هرر ، الذي حاول ان يخلف له وصيته . ومن الصعوبة ، بسبب الحياة التي عاشها رامبو ، احتمال انه احب ثانية بملء قلبه .

روي عن فرلين انه قال بان رامبو لم يعط نفسه البتة . سواء لاله او لانسان . اما صدق هذه القولة ، فبامكان اي امريء ان يقدم حكمه الخاص . لكني ارى انه لم يرغب احد في ان يعطي نفسه ، مثلما رغب رامبو . لقد اعطى الله نفسه وهو طفل ، واعطى العالم نفسه وهو رجل . وفي كلتا الحالتين احس بانه قد تعرض للخديعة والخيانة ، فالتف على نفسه . خاصة بعد الكومونة .. لكن اعماقه ظلت سليمة ،غير مستسلمة، غير ممكن بلوغها . وهو يذكرني ، في هذا المجال ، ب « د.هـ. لورنس » ، الذي ليس لديه الكثير ليقوله حول هذا الموضوع ، اي حول الحفاظ على اعماق الانسان سليمة .

منذ اللحظة التي بدأ فيها يعمل من اجل العيش، بدأت متاعبه الحقيقية . وبدت مواهبه كلها ، وهو يملك الكثير ، بدون فائدة . وبالرغم من كل المثبطات كان يشق طريقه « تقدم ، تقدم دائما ! » ان طاقته لا تحد ، وارادته لا تلين ، وجوعه لا يشبع . « دع الشاعر ينفجر بتوتره نحو اشياء لم يسمع بها أحد ولم يسمها احد !» . حين افكر بهذه الفترة ، المتميزة بجهد يكاد يكون مجنونا من اجل فتح مدخل الى العالم ، من اجل موضع قدم فيه ، حين افكر بالاندفاعات المتكررة في هذا الاتجاه او ذاك ، مثل جيش محاصر يحاول الخلاص من القبضة المحكمة عليه

كاللعنة .. حين افكر بهذا كله ارى شبيبتي نفسها، ثانية . ثلاث مرات ، وهو دون العشرين ، بلغ بروكسل وباريس ، مرتين بلغ لندن . ومن شتوتجارت، بعد ان تمكن من لغة المانية كافية ، طوّف مشيا على قدميه، عبر فورتمبرج وسويسرا ، ليبلغ ايطاليا . ومن ميلانو شرع يمشي قاصدا جزر السكيلاديس (جزر يونانية في بحر ايجة ـ المترجم) ، عبر برنديزي (ميناء في اقصى الجنوب الايطالي ـ المترجم) ، ليصاب بضربة شمس ، ويعاد الى مرسيليا عن طريق ليكورن . وغطى بتجواله شبه الجزيرة الاسكندنافية والدانيمارك مع كرنفال متنقل، وابحر من موانيء هامبورج ، وانتويرب ، وروتردام ، ووصل الى جاوة بعد ان انخرط في الجيش الهولندي، ليفرّ منه .

ومرة ، حين مرّ بجزيرة « سانت هيلانة » على ظهر سفينة انجليزية رفضت الرسو هناك ، القى بنفسه في البحر ، لكنه اعيد الى السفينة قبل بلوغه الشاطيء .من فينا اقتاده الشرطة الى الحدود البافارية باعتباره متشردا . ومن هناك اقتيد ، ثانية ، الى حدود اللورين . وفي كل هذه الافلاتات والاندفاعات ، كان مفلسا دائما، ماشيا ابدا .. طاويا عادة . في شتيتافيشيا بلغ الشاطيء مصابا بحمى معدية ناتجة عن التهاب جدران الامعاء بسبب احتكاك اضلاعه بجوفه من جراء المشي المفرط. وفي الحبشة ركوب الجياد المفرط . الافراط في كل شيء. كان يرهق نفسه بصورة لا انسانية . والهدف بعيد دائما .

كم افهم هذا الجنون جيدا ! وحين استعيد حياتي في اميركا ، يبدو لي انني قطعت آلاف وآلاف الاميال على معدة خاوية . باحثا دائما عن قروش قليلة لكسرة خبز ، لعمل ، لمكان استراحة . ابدا ابحث عن وجه ودود ! واحيانا ، حتى وانا جائع ،كنت انطلق الى الطريق، فاوقف سيارة عابرة ، وادع السائق يضعني حيث يشاء، فقط لاغيّر المشهد . اعرف آلاف المطاعم في نيويورك ، ليس من زيارتي لها سيدا ، بل من طول وقوفي خارجها محدقا في الطاعمين جالسين على الموائد داخلها . واستطيع حتى الآن استرواح اماكن وقوف معينة في زوايا الشوارع حيث يقدم « الهوت دوج »، استطيع حتى الآن رؤية الطباخين ذوي الملابس البيض، وراء النوافذ ، وهم يضعون الفطائر المحمصة Waffles والفلبك Flepjacks في المقلاة . احيانا افكر بانني ولدت جائعا . ومع الجوع .. المشي .. التشرد ، البحث، محموما ، تائها ، جيئة وذهابا . ان افلحت شحاذة ما يزيد قليلا على وجبة ضرورية ، ذهبت فورا الى المسرح او السينما . وكل ما اهتم به ، حين تمتليء معدتي ، ان اجد مكانا دافئا انيقا ارتاح فيه وانسى متاعبي ساعة او ساعتين . ولا اوفر شيئا في مثل هذه الظروف، للعناية بامري .. فبمجرد تركي دفء المسرح المشابه لدفء الرحم ، امضي في البرد والمطر ماشيا الى المكان البعيد الذي صادف اني اسكن فيه . من قلب بروكلين الى قلب مانهاتن مشيت مرات لا تحصى ، في مختلف ظروف الطقس ، ومختلف درجات الطوى . وعندما انهك تماما ، واعود غير قادر على ان اخطو خطوة واحدة ، اكون مرغما على الاستدارة ، متتبعا آثار خطاي . انني استطيع ان افهم كيف يدرب الجنود على اداء مسيرات اجبارية بالغة الطول ، وهم جياع . لكن الامر ليس واحدا ، حين تمشي في شوارع مدينتك الاصلية بين وجوه عدوة ، وحين تكون متشردا على الطريق العام في ولايات مجاورة . في مدينتك الاصلية تكون المداوة هي اللامبالاة ، بينما يواجهك في المدن الغريبة عنصر معاد غريزيا . فثمة كلاب متوحشة ، وبنادق صيد ،وشرفاء شرطة ، وحرس من كل نوع ، بانتظارك . وانت لا تستطيع التمدد على الارض الباردة ان كنت غريبا عن تلك الناحية . انت تظل سائرا ، سائرا ، سائرا ، طوال الوقت . وفي ظهرك تحس بفوهة المسدس الباردة ،وهي تطلب منك ان تسير اسرع ، اسرع ، اسرع . انها ، بعد هذا ، بلادك ، التي يحدث فيها هذا كله ، وليست ارضا اجنبية .

قد يكون اليابانيون قساة ، والهون برابرة . لكن اي شياطين هؤلاء الذين يبدون مثلك ، ويتكلمون مثلك، ويلبسون اللبوس ذاته ، ويأكلون المأكل نفسه .. ويطاردونك ككلاب الصيد ؟ اليس هؤلاء الد اعداء يمكن ان يجدهم المرء ؟ قد اجد اعذارا للاخرين ، لكني لا اجد اي عذر لذوي المرء انفسهم . غالبا ما كتب رامبو الى اهله يقول « ليس لي اصدقاء هنا » . وحتى في حزيران ١٨٩١ ، ومن مستشفى مرسيليا،كان يعيد النغمة نفسها. اموت حيث يلقي بي القدر . آمل ان تكون لديّ القوة للعودة الى حيث كنت (الحبشة) ، فلي هناك اصدقاء سنوات عشر ، يشفقون عليّ . لقد وجدت عندهم العمل، وعشت كما اردت . ساعيش دائما هناك ، اما في فرنسا ، وباستثنائك ، فليس لي اصدقاء ولا معارف .. لا احد » .

وثمة هامش نقرأ فيه ما يأتي :

« مع مجد رامبو الادبي ، الذائع في باريس ، فان محبيه المخلصين كثار » . انه يتجاهلهم . اي لعنة ! اجل، اي لعنة ! افكر بعودتي انا الى نيويورك ، وهي عودة اجبارية ايضا ، بعد سنوات عشر في الخارج . لقد غادرت اميركا ، وليس معي الا عشرة دولارات استدنتها في اللحظة الاخيرة قبل ان استقلّ السفينة ، ثم عدت بلا قرش ، مستدينا اجرة السائق من موظف الفندق الذي ظن حين راى حقائبي واغراضي ان لديّ ما ادفع به قائمة الفندق .

ـ التتمة على الصفحة ٥٠ ـ

زمن ليس للشعر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٥ ـ

كان اول ما عليّ ان افعله بعد بلوغي « الوطن » ان اتصل هاتفيا باحدهم بغية قليل من الدراهم وخلافا لرامبو ، لم يكن لديّ هميان مليء بالذهب ، خبيء تحت الفراش . لكن ساقي ما تزالان سليمتين ، وهكذا في الصباح ، لو لم يأت العون في المساء ، سوف ابدأ المشي عبر المدينة بحثا عن وجه ودود ، ثانية . تلك السنوات العشر ، في الخارج . اشتغلت مثل عفريت ، ووفرت لنفسي حق العيش المريح عاما او نحوه . لكن الحرب تدخلت ، وحطمت كل شيء ، تماما مثلما خيبت دسائس الدول الاوربية فرص رامبو في الصومال . كم يبدو اليفا هذا المقطع من رسالة مؤرخة في كانون الثاني ١٨٨٨ ، من عدن ..

« كل الحكومات جاءت لتبتلع الملايين (وحتى المليارات) على كل هذه السواحل اللعينة الحزينة ، حيث يظل اهل البلاد شهورا بلا غذاء ولا ماء ، تحت اقسى مناخ في الارض . وكل هذه الملايين الملقاة في احشاء البدو ، لم تحملّ الا الحروب ، والكوارث من كل نوع !»

اي صورة امينة هذه .. لحكوماتنا العزيزة ! هذه الباحثة ، ابدا ، عن موطيء قدم في مكان ما تعس ، مضطهدة او مبيدة السكان المحليين ، متشبثة بما لديها ، مدافعة عن ممتلكاتها ، مستعمراتها ، بالجيش والبحرية . العالم بالنسبة للكبار ، ليس كبيرا بما فيه الكفاية . اما الصغار الذين يريدون ملاذا ، فلهم الكلمات الورعة والتهديدات المقنعة . الارض للاقوياء ، لذوي الجيوش والبحرية ، لاولئك الذين يرفعون الهراوة الاقتصادية . اي مسخرة في ان على الشاعر المتوحد الهارب الى نهاية العالم من اجل تدبير معيشة بائسة .. ان يجلس مبسوط الذراعين . وهو ينظر الى الدول الكبرى تفسد حديقته .

« نعم ، نهاية العالم .. تقدم ، تقدم ، دائما .. الآن تبدأ المغامرة الكبرى .. » لكنك مهما اسرعت .. فستجد الحكومات امامك ، بالتقييدات ، والقيود ، والسلاسل ، والغازات السامة ، والدبابات ، والقنابل النتنة . لقد اخذ رامبو على عاتقه تعليم اولاد « هرر » وبناتها ، القرآن ، بلغتهم . اما الحكومات فسوف تبيع هؤلاء في سوق النخاسة . كتب مرة يقول « ثمة خراب ضروري » ، ويا للضجة التي قامت حول هذا التصريح البسيط ! كان يتحدث آنذاك عن الخراب المؤدي الى الخلق . لكن الحكومات تخرب بدون ادنى عذر ، وبالتأكيد دون اي تفكير بالخلق . لقد اراد رامبو ان يرى الاشكال القديمة تزول ، في الحياة كما في الادب . اما ما تريده الحكومات فهو الابقاء على الامر الواقع ، مهما كلف هذا الابقاء من تذبيح وتخريب . بعض كتاب سيرته ، حين يصفون سلوكه في شبابه ، يجعلون منه ولدا بالغ السوء . الا تدري ؟ لقد فعل اشياء مقرفة .. كيت وكيت . لكنهم حين يأتون الى مدح افعال حكوماتهم العزيزة ، وبخاصة فيما يتعلق بالمكائد التي وقف رامبو ضدها ، يجعلون من كل شيء عسلا وبياضا ناصعا .

عندما يريدون اغفال صفة المغامر يتحدثون عن فوضاه وتمرده . انهم يدهشون حين يقلد الشاعر نهابيهم ومستغليهم . ويذعرون لانه لا يبالي بالمال أو برتابة حياة المواطن العادي المملة .

انه باعتباره بوهيميا ، بوهيمي أكثر من اللازم ، وباعتباره شاعرا ، شاعرا أكثر مما ينبغي . وهو رجل أعمال أكثر من اللازم . وكمهرب بنادق ، حاذق أكثر مما ينبغي ... وهكذا . ان فعل شيئا أتقنه ... ويبدو ان هذا الامر أمسى شكوى ضده . من المؤسف ان لم يصبح سياسيا ، اذن لقام بعمله خير قيام الى حد ان هتلر . وستالين ، وموسوليني ، دع عنك تشرشل وروزفلت ، سيبدون ازاءه بهلوانات . وأشك في انه كان سيجلب الى العالم الخراب الذي جلبه هؤلاء الزعماء الموقرون . كان سيحفظ بالتأكيد ، شيئا في كمه ليوم ماطر . ولم يكن ليطلق صاعقته . لم يكن ليضلّ السبيل الى الهدف ، كما فعل زعماؤنا النابهون . ومع كل الخراب الذي ألحقه بحياته ، أؤمن بأنه ـ لو منح الفرصة ـ كان سيجعل العالم أجمل مكان نعيش فيه . أؤمن بأن الحالم ، مهما بدا غير عملي بالنسبة لرجل الشارع ، هو أكثر قدرة وكفاءة ، بألف مرة ، ممن نسميهم ، الساسة .

كان يمكن أن تتحقق ، بهذه الدرجة او تلك ، كل المشاريع المذهلة التي أراد رامبو تنفيذها ، والتي عطلت لهذا السبب أو ذاك .

كل ذنبه ، انه فكر بمشاريعه قبل الاوان . لقد رأى أبعد كثيرا من آمال وأحلام الساسة والناس العاديين على حد سواء . كان يعوزه اسناد أولئك الناس الذين لا يحلمون الا في النوم ... الذين لم يحلموا ابدا مفتحي العيون . كل شيء يأتي بطيئا ، متثاقلا ، بالنسبة للحالم الذي يقف وسط الواقع ... كل شيء حتى الخراب .

كتب أحد كتاب سيرته : « لن يشفى غليله ابدا . تحت نظرته الكليلة تذوي كل الزهور ، وتشحب النجوم » . أجل ، ثمة شيء من الحق في هذا القول . وأنا أعرف الامر اذ عانيت من المرض نفسه . لكن ان حلم أحد بامبراطورية ، امبراطورية الانسان ، وان جرؤ أحد على التفكير بخطى الحلزون التي يتقدم بها البشر نحو تحقيق احلامهم ، فمن الممكن ان ما نسميه انشطة الانسان ، سيعروها الشحوب ، حد التفاهة . لا أعتقد أبدا ، ان

الزهور تذوي ، والنجوم تشحب تحت عيني رامبو . بل أرى ان جوهره يتصل اتصالا مباشرا متحمسا بالزهور والنجوم .

في عالم الناس ، فقط ، كانت نظرته الكليلة ، ترى الاشياء تذوي وتشحب . لقد بدأ وهو يريد أن « يرى كل شيء . يحسّ كل شيء . يستنفذ كل شيء . يكتشف كل شيء . يقول كل شيء » .

ولم يمر وقت طويل حتى أحسّ باللجام في فمه ، وبالمهماز على جنبيه ، وبالسوط على ظهره . ليلبس المرء ، فقط ، ملابس مختلفة عن سواه ، أي احتقار وسخرية يتعرض لهما ؟! ان القانون الوحيد الذي نحياه حقا ، نتعلق به ، ونثار له ، هو قانون الموافقة . فلا عجب اذا انتهى وهو ما يزال صبيا الى ان « يجد اضطراب ذهنه مقدسا » . في هذه النقطة ، جعل من نفسه ، عرافا ، حقا . لكنه ، من ناحية أخرى ، وجد الناس ينظرون اليه باعتباره مهرجا وبهلوانا . وكان أمامه اختيار أن يقاتل طيلة حياته من أجل أن يثبت في الموقع الذي كسبه ، أو أن يتخلى عن النضال نهائيا . لمَ لم يساوم ؟ لان المساومة لم تكن في قاموسه . كان متعصبا منذ طفولته ، شخصا عليه أن يمضي الى نهاية الطريق ، أو يموت . وفي هذا يكمن طهره وبراءته .

في كل هذا اكتشفت ، ثانية ، ورطتي الخاصة . لم أتخلّ أبدا عن النضال . لكن ... أي ثمن دفعته ؟! كان علي أن أشن حرب عصابات ، ذلك النضال اليائس النابع من الاستماتة ، حسب .

والعمل الذي اعتزمت كتابته ، لم يكتب بعد . أو كتب جزئيا . كان عليّ أن أناضل ، كل بوصة من الطريق ، فقط من أجل أن أرفع صوتي ، واتحدث بطريقتي الخاصة . لقد غدت الاغنية منسية ، أو كادت . بسبب النضال . تحدث عن النظرة الكليلة التي تذوي تحتها الزهور وتشحب النجوم ! لقد غدت نظرتي ، حقا ، أكالة : وانها لمعجزة الا تعصف نظرتي التي لا ترحم ، بالزهور والنجوم . أما بالنسبة الظاهر ، فان الشخص السطحي قد تعلم ، تدريجيا ، أن يكيف نفسه لطرائق العالم . انه يستطيع أن يكون فيها ، بدون أن يكون منها . يستطيع أن يكون شفوقا ، لطيفا ، محسنا ، كريما . لم لا ؟ « ان المشكلة الحقيقية » ــ كما أشار رامبو ــ « هي أن تجعل الروح مهولة » . أي ليست فظيعة ، بل خارقة ! ما معنى « مهولة » ؟ حسب القاموس ، هي « كل شكل منظم من أشكال الحياة . شوّه كثيرا ، اما بسبب نقص ، أو زيادة ، أو تبدل موضع ، أو تغير أجزاء أو أعضاء ، وبالتالي ، كل شيء هائل أو شاذ ، أو مكون من أجزاء أو صفات مختلفة ، سواء كان شنيعا أو لم يكن » .

ان جذر الكلمة Monstrous هو من الفعل اللاتيني Moneo أي : يحذر . وفي الميثولوجيا ، نتعرف على الكلمة في هيأة العنقاء والسعلاة وأبي الهول والقنطور وجنية الغابة وعروس البحر . وكلها كائن خارق ... وهو المعنى الجوهري للكلمة . لقد قلبت الميثولوجيا النموذج ، التوازن ، رأسا على عقب . ما مغزى هذا الامر ، ان لم يكن خوف الانسان البسيط ؟ ان الناس البسطاء يرون دائما كائنات خارقة في طريقهم : أحصنة طائرة أو هتلريين .

اعظم خوف للانسان ، هو امتداد الوعي . والجانب المرعب في الميثولوجيا ينبع من هذا الخوف .

يتوسل الرجل البسيط : « دعونا نعيش بسلام وانسجام » . لكن قانون الكون يقضي بأن السلام والانسجام لا يأتيان الا بالصراع الداخلي . والرجل البسيط لا يريد ان يدفع ثمن ذلك النوع من السلام والانسجام ، انه يريدهما جاهزين : مثل بدلة جاهزة .

صدر حديثا :

الانسان وقواه الخفية

تاليف كولن ولسن

ترجمة سامي خشبة

دراسة في القوة الكامنة التي يملكها البشر للوصول الى ما وراء الحاضر

منشورات دار الآداب